

منهج طه حسين

في الدراسات الادبية

للدكتور شوقي ضيف

يعد طه حسين الرائد الفذ للدراسات الادبية العربية في القرن العشرين ، وعوامل مختلفة تضافرت في احلاله هذه المنزلة الرفيعة ، ولكي نتضح لنا ينبغي العودة الى تكوينه الادبي في نشأته الاولى حين كان طالبا بالازهر منذ السادسة عشرة من عمره ، وكان يختلف الى دروس الشيخ سيد المرصفي ، وفيها كان يدرس لطلابه نصوصا في ديوان الحماسة لابي تمام وكتابي الكامل للبرد والامالي لابي علي القالي ، وكان يعلي عليهم شروحا لما يقرأ ونظرات لغوية وتقديرية ، من شأنها أن تكون في الطلاب ملكة الكتابة وتذوق الأدب والفقہ باللغة وجودة اللفظ ورصانة الاسلوب . وافتتحت الجامعة المصرية الاهلية سنة ١٩٠٨ فانتسب اليها ، وكانت قد دعت اليها طائفة من المستشرقين في إيطاليا وفرنسا وألمانيا ليحاضروا بها في قسم الاداب ، وكان من بينهم جويدي الذي عني بعرض الادب الجغرافي والتاريخي ، ونالينو الذي عني بعرض تاريخ علم الفلك عند العرب ثم بدراسة تاريخ الادب العربي في العصرين الجاهلي والاموي ، وسانتلانا الذي عني بدراسة الفلسفة الاسلامية واليونانية ، وليتمان أستاذ اللغات السامية ، وعني بدراسة تاريخ الفلسفة . وظل طه حسين يستمع الى محاضرات أستاذه المرصفي في الصباح كما ظل يذهب في المساء لاستماع هؤلاء المستشرقين .

واستقر في نفس طه حسين مبكرا أنه ينبغي في دراسة الادب العربي الانتفاع بطريقة شيخه المرصفي التي تعين على تكوين الملكة الادبية عند الطلاب وتصل أذواقهم بما تعرض من النقد اللغوي وبيان الدقائق والاسرار البلاغية والانتفاع مع ذلك بطرق المستشرقين في دراسة تاريخ هذا الادب في الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد والعلم والفكر . لا بد اذن في دراسة الادب من الاخذ بطريقة المرصفي التي تساعد على فهم النصوص الادبية وتذوقها تذوقا حسنا والاخذ بطرق المستشرقين لاستنباط التاريخ الادبي لهذه النصوص ومن أنتجها من الشعراء والكتاب .

وماتوفى سنة ١٩١٤ حتى يضع طه حسين رسالة يحصل بها على درجة العالمية من الجامعة المصرية الاهلية ، اتخذ موضوعها دراسة أبي العلاء المعري مفيدا فيها من طريقة شيخه المرصفي في فهم الشعر وتذوقه ، ومن طرق المستشرقين في دراسة تاريخ الادب دراسة تعين على فهم المؤثرات السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والعقلية في العصر كله ويوضح تأثره العميق بطرق المستشرقين في دراسته لحكيم المعرة ودرتها الفريدة قوله في فواتحها :

« ليس الغرض في هذا الكتاب أن نصف حياة أبي العلاء وحده ، وإنما نريد أن ندرس حياة النفس الاسلامية في عصره ، فلم يكن لحكيم المعرة أن ينفرد باظهار آثاره المادية والمعنوية وإنما الرجل وماله من آثار وأطوار نتيجة لازمة وثمره ناضجة لطائفة من العلل اشتركت في تأليف مزاجه وتصوير نفسه من غير أن يكون له عليها سيطرة أو سلطان من هذه العلل المادي والمعنوي واذا صح هذا كله فأبو العلاء ثمرة من ثمرات

عصره ، قد عمل في انضاجها الزمان والمكان والحال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية .

ومايلبث أن يعلن في التمهيد أن مؤرخ الادب الذي لا يؤمن بالمذاهب الحديثة ولا يصطنع في البحث طرائقه الطريفة .. ولا يطمئن الى أن الحركة التاريخية جبرية ليس للاختيار فيها مكان لا يستطيع أن يوفي دراسة أبي العلاء حقها في رأيه . والمهم اعلانه جبرية التاريخ الادبي وأنه ثمرة علل ينبغي تبينها في دراسته ، وحرار بعض الباحثين في استشعار طه حسين لهذه الجبرية وتساءلوا هل اطلع على آراء تين الناقد الفرنسي وماذهب اليه من جبرية التاريخ الادبي وجبرية علله المؤثرة في سماته وخصائصه . ولا موضع لهذا التساؤل ، فقد أعفانا هو نفسه من تحليل ذلك بما ذكر من أنه يتبع فيه فلاسفة أوروبا والمسلمين ، أما فلاسفة أوروبا فمن ذكره له منهم أساتذته المستشرقون ولا نعرف هل كان بينهم تين أو لم يكن ، وأما فلاسفة المسلمين فلعله يقصد ابن خلدون وماذهب اليه من الجبرية التاريخية في فلسفته الاجتماعية بمقدمته المشهورة .

وبذلك يرسم طه حسين منهجه في دراسة تاريخ الادب العربي ، فهو ليس سردا لاخبار من هنا وهناك عن العصر وأدبائه ، بل هو دراسة جادة للادب وأدبائه وللعوامل والمؤثرات الحتمية التي تتحكم فيه وفي منتجه وماينتجون من آثار أدبية ، حتى ليقول : « ان الحادثة التاريخية والقصيدة الشعرية والخطبة يجيدها الخطيب والرسالة ينقها الكاتب الاديب ، كل أولئك نسيج من العلل الاجتماعية والكونية يخضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل الكيمياء » . وقد يكون طه حسين مسرفا في تصور هذه الجبرية التي تشمل جميع الادباء في العصر دون أي تفريق

بين أديب وأديب ودون أي مراعاة لفردية الأديب ومواهبه الذاتية ، غير أنه كان من الضروري وهو يضع - لأول مرة قواعد التاريخ للأدب العربي وأدبائه أن يقرع أسمع من يحاولون التصدي لدراسة هذا التاريخ بأن واجبهم أن يعكفوا على دراسة المؤثرات البيئية والسياسية والاجتماعية والعقلية والحضارية في العصر وفي أدبائه وما أنتجوا من شعر ونثر ، ويوضحوها توضيحاً تاماً ، ومن الخير أن لا يعطوها صفة الحتم والجبر والالزام ، ولكن لا بد من استقصائها حتى تستبين سمات الأدب في العصر والعوامل التي تفاعل معها استبانة كاملة .

وجعل طه حسين الرسالة في تمهيد وخمس مقالات ، وتحدث في التمهيد عن مصادر الدراسة العربية القديمة والحديثة ومصادرها الإنجليزية والفرنسية ، وفي المقالة الأولى عرض زمان أبي العلاء ومكانه وشعبه وموضع عصره من العصور العباسية ملاحظاً أن ربط مؤرخي الأدب العربي بين السياسة والأدب يجر إلى حيف شديد ، لأن الدولة قد تضعف ويظل الأدب مزدهراً ولا يزال هناك من يردد هذا الرأي ، غير أنه من الصعب وضع بديل سوى السياسة للعصور الأدبية ، وهي في واقعها رمز ، لأن العصور الأدبية لا تنشأ فجأة ولا هي تنشأ بمراسيم سياسية ، إنما تنشأ تدريجياً وتتخذ حادثة سياسية كبيرة رمزاً لنشأتها على نحو ما صنعنا باتخاذ سنة ١٣٢ للهجرة بدءاً للعصر العباسي ، وكانت مقدماته بدأت قبل هذا التاريخ بسنوات غير قليلة - ويعرض طه حسين في المقالة الأولى أيضاً الحياة الاقتصادية والدينية والاجتماعية والعقلية والفلسفية والأدب في العصر والعلوم الأدبية واللغة . وفي المقالة الثانية يتحدث عن حياة أبي العلاء فيعرض قبيلته وأسرته ومولده واسمه ولقبه وكنيته وتربيته وتعليه ومراحل حياته وأحداثها مفصلة غاية التفصيل . ويتناول في

المقالة الثالثة أدبه وشعره في سقط الزند واللزوميات والدرعيات ونثره وأطواره وخصائصه . وفي المقالة الرابعة يعرض علمه وكتبه . ويتحدث في المقالة الخامسة عن فلسفته الطبيعية والالهية والعملية وخصائصه الفلسفية .

ولعلنا لانبالغ اذا قلنا أن هذه الرسالة تعد بدء التاريخ الدقيق لوضع الأسس القوية لتاريخ الأدب العربي ، بحيث يدرس دراسة علمية سديدة ، كما تدرس أعلامه دراسة تحليلية نتبين فيها روح العصر بكل مشخصاته الزمانية والبيئية ، وبعبارة أخرى بكل مؤثراته - أو كما يقول ؛ بكل علله البيئية والسياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والعقلية ، وقد جلى شخصية أبي العلاء جلاء تاماً ، وصوّر منزلته الادبية والعلمية والفلسفية تصويراً بالغ الدقة ، ومهما اختلفنا معه - أو اختلف بعض المعاصرين - ازاء بعض أحكامه عليه وخاصة على فلسفته وآرائه العقلية فان هذه الرسالة تؤرخ - كما أسلفت - البدء الحقيقي لدراسات الأدب العربي وتاريخه في القرن العشرين ، إذ وضعت على منهج سديد ، يستضيء بما اتخذه الغربيون في دراسات الادب وتاريخه من مناهج محكمة قوية مع الانتفاع فيها بمنهج شيخه المرصفي وعنايته فيه باللغة والنقد وصقل الذوق الأدبي .

ولما أظهر في رسالته من الاستعداد العلمي في دراسة الأدب وتاريخه قررت الجامعة الأهلية ارساله في بعثة الى فرنسا سنة ١٩١٤ ورأى نهضة الفكر الأوربي تعتمد على الاصول الكلاسيكية اليونانية واللاتينية ، فأقبل على التزود من تلك الاصول بتعلم الاغريقية واللاتينية ، وأخذ يختلف الى محاضرات دور كايم في علم الاجتماع ، وأعجبه دراسته الاجتماعية وأعد بإشرافه رسالته للحصول على الدكتوراه في فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ،

كما توضحها مقدمته المعروفة . وكان يختلف الى محاضرات (دييل) عن الحضارة البيزنطية وليفى برول عن فلسفة ديكارت ولانسون عن تاريخ الأدب الفرنسي ، وكان يرفع من شأن الذوق ومايثيره في الناقد الأدبي من انطباعات واحساسات وتأثرات بحيث يستهوي قارئه ويجذبه إلى مايقوله ، وأعجبه منهجه التأثري الذاتي في دراسة الأدب ، واختلف الى محاضرات كازانوف في تفسير القرآن الكريم وهو في أثناء ذلك كله ظل يُعنى بتاريخ اليونان والرومان عناية أتاحت له الحصول على دبلوم الدراسة العليا في القانون المدني الروماني .

وعاد إلى مصر في أكتوبر سنة ١٩١٩ فعين بالجامعة المصرية أستاذاً للتاريخ القديم اليوناني والروماني ، ويظل في هذا المنصب حتى سنة ١٩٢٥ م وينشر خلال هذه السنوات طائفة من الكتب والمقالات تأليفاً وترجمة حول التراث اليوناني ، ويصدر حزب الاحرار الدستوريين صحيفة السياسة في أواخر سنة ١٩٢٢ لتكون اللسان المعبر عن الحزب ومبادئه وأهدافه ، ويصبح طه حسين كاتبها الأدبي ، وينشر فيها يوم الاحد قصة ملخصة عن الأدب الفرنسي ، وكل يوم أربعاء ينشر فصلاً عن الشعر والشعراء في أواخر العصر الأموي والعصر العباسي الأول ، بدأها في ديسمبر سنة ١٩٢٢ واستمر فيها حتى فبراير سنة ١٩٢٤ وفيها عرض أبا نواس وشعراء الخمر واللهو من الوليد بن يزيد الى مروان بن أبي حفصة ماراً بمطيع بن اياس وحماد عجرد وبشار ووالبة وغيرهم من المجان ، وثار عليه كثيرون وعدوه مشوهاً لتاريخ العرب في حقبة باهرة من حقب تاريخهم زمن المنصور والمهدي والرشيد ، وردّ بأن العلم ينكر تقديس السلف ولايعرف الهوى ولا العواطف ، واستشهد بعصور في تاريخ اليونان القديم وتاريخ فرنسا الحديث كانت من أزهى العصور ومن

أكثرها لهواً ومجوناً وأضاف الى هذه الفصول فصولاً عن شعراء الغزل في العصر الأموي ، وجميع هذه الفصول منشورة في الجزء الثاني من حديث الاربعاء ، وفي تضاعيفها نظرات وآراء في الشعر العربي وتاريخه مما أفاده في دراسة الأدب من أساتذته الفرنسيين ، ونراه في المقالة السابعة من هذا الجزء يتحدث عن الغاية من نقد الشاعر ويرجعها الى محاولة فهم شخصيته وعصره وبيئته وما يحدثه شعره في نفس الناقد من لذة فنية ، ويعرض في إجمال منهج سانت بييف Saint Béuve في نقد الشعراء وتحليله لشخصياتهم ومنهج تين Taine في عدم عنايته بشخصياتهم وإنما بعصورهم وبيئاتهم والامم التي ينتمون إليها ومنهج جول ليمتر Jules Lemaitre في عنايته بتأثير الشعراء في النفوس وما يبعثون فيها من العواطف ، ويرى الانتفاع بكل هذه المناهج في دراسة الشعراء ، وانتفع أيضاً بمنهج أستاذه لانسون في نقد الشعراء وأنه ينبغي أن يصور ما خلفوه من انطباعات في نفوس النقاد عن طريق التذوق الشخصي لأشعارهم . وسيعود طه حسين الى ذكر مناهج النقاد الفرنسيين في دراسة الأدب عما قليل بصورة أكثر سعة وتفصيلاً .

وتتحول الجامعة المصرية الاهلية الى جامعة حكومية سنة ١٩٢٥ ويصبح طه حسين أستاذاً فيها للادب العربي وتاريخه ، وأخذ في محاضراته طوال هذا العام يعني بدراسة العصر الجاهلي أقدم عصور الادب العربي ، وما إن استدار العام حتى نشر كتابه : « في الشعر الجاهلي » مستعيناً فيه بمناهج الغربيين في دراسة الشعر اليوناني القديم ، وأحدث الكتاب ضجة هائلة في الاوساط الدينية والعلمية والسياسية والرأي العام بشكها الواسع في الشعر الجاهلي وتعرضه فيه لبعض مسائل تمس الدين ، فصدر الكتاب . وفي السنة التالية أعاد نشر الكتاب في صورة معدلة

وبعنوان جديد هو: « في الأدب الجاهلي » وفيه رسم منهجه في دراسة تاريخه ، وكانت بعض أسس هذا المنهج قد نشرها مفرقة في رسالته عن أبي العلاء ، وفي المقالات التي نشرها في السياسة والتي تحدثنا عنها آنفاً ، فضم شوارد تلك الاسس وألف منها نسفاً واضح المعالم لمنهجه .

ويتحدث في فواتح الكتاب عن دراسة الأدب العربي وتاريخه بمصر في معاهده المختلفة ويقول إنها عقيدة أشد العقم مجدبة أشد الاجداب اذ لاتنشئ ملكة أدبية ولاقدرة على النقد والتحليل ولاتصوراً سليماً لتاريخ الأدب ودراسة شخصيات الادباء وماينتجون من شعر ونثر ، ويقول إن مؤرخ الأدب العربي لابد له من أن يكون واسع الثقافة باللفة وعلومها والعلوم الدينية والتاريخ وتقويم البلدان والفلسفة والآداب الاجنبية القديمة والحديثة ، ويعرف الأدب بأنه ماثور الكلام شعراً ونثراً ، ويقسمه الى أدب انشائي وهو ماينتجه الاديب من آثار فنية شعرية ونثرية ، وأدب وصفي وهو الذي يدرس الادب الانشائي مفسراً أو مؤرخاً ومحلاً وناقداً ، ويقول إن الأدب الوصفي هو ماسماه المحدثون باسم تاريخ الادب .

ويأخذ طه حسين في بيان مقاييس التاريخ الأدبي ، ويبدوها بالمقياس السياسي ومايترب عليه من تقسيم الادب العربي الى عصور ، ويرفضه كما رفضه في مقدمات رسالته عن أبي العلاء لما يجر اليه من الربط بين قوة الادب وضعفه وقوة الدولة من الناحية السياسية وضعفها ، فهو راق خصب اذا ارتقت الحياة السياسية ، وهو جرد منحط اذا انحطت الحياة السياسية ، ومعروف أن الحياة السياسية العربية انحطت في القرن الرابع الهجري وارتقى الادب وازدهر ، فالسياسة لاتصلح مطلقاً أن تكون مقياساً دقيقاً للحياة الادبية .

ويعرض المقياس الثاني لدراسة تاريخ الادب ويسميه المقياس العلمي ، وهو مقياس اشترك في وضع مناهجه ثلاثة من مؤرخي الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر أرادوا - بتأثير النهضة العظيمة للعلوم الطبيعية في عصرهم وسيطرة مناهجها وقواعدها في دراسة الفلسفة وظهور ماسمي فيها بالفلسفة الوضعية - أن يخضعوا الأدب وتاريخه لقوانين ثابتة كقوانين العلوم الطبيعية المطردة الثابتة ، ونهض بذلك ثلاثة من أفذاذ مؤرخي الأدب الفرنسيين هم : سانت بييف Sainte-Béuve وتين Taine وبرونتيير Brunetière أما الأول فرأى أن يرجع هذه القوانين الى دراسة شخصيات الشعراء والكتاب دراسة نفسية عضوية تشمل عصورهم وأوطانهم وأسرمهم وتربيتهم وتعلمهم وثقافتهم وتكويناتهم الجسمية والعقلية والنفسية وصلاتهم الاجتماعية وجوانب ضعفهم وكل ما اضطربوا فيه من آراء ومن نجاح واخفاق حتى اذا اتضحت في شخصية الاديب كل هذه الجوانب استطاع مؤرخ الادب أن يعرف ما يميز شخصيته وما يشترك فيه مع شخصيات أخرى بحيث يكون منها فصيلة أدبية في الأمة على نحو ما يصنع علماء النبات في تبين الفصائل النباتية المختلفة اذ يستخلص للفصيلة الادبية قانونها العلمي الادبي كما يستخلص هؤلاء العلماء لفصائل النبات قوانينهم العلمية الصرفة . ومضى تين الى نهج أبعد ، اذ لم يعتقد فيه بشخصية الأديب الفردية ، إنما اعتد بقوانين حتمية جبرية تطبق على جميع أفراد الأمة ، دون أي استثناء ، كقوانين الطبيعة التي تخضع فيها جميع الجزئيات لكل قانون خضوعا مطلقا دون أي شذوذ ، وردّ هذه القوانين الى ثلاثة ، وهي الجنس والبيئة أو المكان ، والعصر أو الزمان . أما الجنس فيمثل في الفطرة الموروثة لكل أمة تنتمي الى أصل واحد ، وأما البيئة فيقصد بها الوسط المكاني الذي ينشأ ويضطرب فيه

جميع الافراد في الأمة بحيث يشتركون في صورة واحدة من الروح الاجتماعية ومن الأخلاق والعادات ، وأما العصر فيقصد به الظروف السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية ، فالشاعر والكاتب انما هو أثر من آثار الجنس والبيئة والعصر ، والغرض القويم من دراسة تاريخ الأدب إنما هو بيان هذه المؤثرات أو بعبارة أدق القوانين التي أحدثت الكاتب أو الشاعر ، وأرغمته على أن ينتج ما أنتج من نثر أو شعر ، وأما برونتيير فقاده الأخذ بمناهج العلوم الطبيعية وقوانينها الجبرية في دراسة الأدب الى تطبيق ماذهب إليه داروين في علم الاحياء من نظرية التطور أو نظرية النشوء والارتقاء فوضع في ذلك كتابه : « تطور الأنواع الأدبية » محاولاً تقسيمها في الشعر والنثر الى فصائل كفصائل الكائنات الحيوانية فهي مثلها يتولد بعضها من بعض ، وقد تلاشى كما تلاشت بعض فصائل الحيوان ، وأخذ يطبق ذلك على المسرح والنقد الأدبي والشعر الغنائي ، واتخذ من ازدهار النوع الأخير بفرنسا في القرن التاسع عشر دليلاً على أن نوعاً أدبياً تلاشى في نوع آخر ، اذ ذهب الى أن هذا النوع أو الشعر لم يتطور عن أصل من نوعه ، انما تطور عن الوعظ الديني الذي ازدهر بفرنسا في القرن السابع عشر ثم ضعف وعاد يحيا من جديد في هذا الشعر الغنائي للقرن الماضي .

ويعقب طه حسين على هذا المقياس العلمي عند مؤرخي الأدب الفرنسيين الثلاثة بأنهم كانوا غير موفقين فيما حاولوا من وضع قوانين علمية للأدب وتاريخه كقوانين العلوم الطبيعية لأن تاريخ الأدب لا يمكن أن يكون علماً خالصاً ، اذ لا يمكن لمؤرخ الأدب أن يبرأ من شخصيته وذوقه على نحو ما يبرأ عالم الطبيعة في وضع قوانينها العلمية . وهداه التفكير الى مقياس ثالث لتاريخ الأدب سماه المقياس الأدبي ، وهو

فيه يفسح مجالاً واسعاً للتذوق وتعبير مؤرخ الأدب عن انطباعاته ازاء الأثر الأدبي وصاحبه ، حتى يتمتع عقول قرائه وقلوبهم بتأثيراته الذاتية ، وهو في ذلك يستضيء بأراء أستاذه (لانسون) مؤرخ الأدب الفرنسي وماكان يذهب إليه من الحملة على أصحاب المنهج العلمي السالف ، لما يؤدي اليه من مسخ تاريخ الأدب في رأيه ، اذ يخليه من شخصية المؤرخ الأدبي وتذوقه الشخصي ، ويجعله جافاً مجذباً لايجب الأدب إلى القراء . ولم يجر مع أستاذه إلى نهاية الشوط ، فقد رأى أن يفيد مؤرخ الأدب من المناهج العلمية السالفة وأن يضم إليها تأثيره وتذوقه للآثار الأدبية ، بحيث لا يطغى التذوق والتأثر أو بعبارة أخرى لاتطغى شخصية المؤرخ الأدبي على تاريخ الأدب وتتحكم فيه ، والا أصبح فنا ولم يعد تاريخاً أدبياً ، وكما أنه ينبغي أن لا يصبح علماً خالصاً كذلك ينبغي أن لا يصبح عملاً فنياً خالصاً ، ومنهجه الذي ارتضاه لذلك لدراسة تاريخ الأدب أن يتخذ فيه سبيل وسط بين المناهج العلمية الصارمة السالفة وبين منهج لانسون التأثري الذاتي ، وتأثر بلانسون أيضاً فيما ذكره من أن مؤرخ الأدب ينبغي أن يستعين بمعارف متنوعة من التاريخ الحضاري للأمة وتراجم الأدباء وتواريخ العلوم والفلسفة والعلوم اللغوية ، مما جعله يذهب الى أن دراسة الأدب ينبغي أن تمر بمرحلتين : مرحلة اعداد يتقن فيها مؤرخ الأدب علوم النحو وفقه اللغة والصرف والبيان والتاريخ ومعرفة مناهج البحث الأدبي ، حتى يستكشف النص الأدبي ويحققه ويضبطه ، ومرحلة ثانية تلي مرحلة الاعداد ، وفيها يتبين مواضع الجمال في الأثر الأدبي معتمداً في ذلك على الذوق الشخصي وبيان انطباعاته ازاءه مع ماينبغي له من الحرية الفكرية في البحث والنقد والتحليل .

ويدرس طه حسين بعد بيان منهجه وتفصيله الأدب الجاهلي محتكماً

في دراسته الى مذهب الشك الذي أوجب استخدامه الفيلسوف الفرنسي ديكارت في البحث ، وهو يتلخص في أن الباحث ينبغي أن يدرس موضوعه خالي الذهن مما قيل فيه دون استشعار أي شيء من عواطفه الدينية والقومية وقد مضى على هدى هذا المنهج لا يقبل حكماً ولا رأياً مما قاله القدماء الا بعد تمحيص دقيق له ، ولا يلبث أن يعلن أنه درس الأدب الجاهلي دراسة علمية انتهت به الى نظرية عامة هي أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليس من الجاهلية في شيء وإنما هي منتحلة بعد ظهور الاسلام فهي اسلامية تمثل حياة المسلمين أكثر مما تمثل حياة الجاهليين ، ولا ينبغي الاعتماد عليها في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة للعصر الجاهلي ، وتحدث عن أسباب الوضع والانتحال في الشعر الجاهلي وردها الى السياسة والدين والقصص والشعوبية والرواة ، ثم درس الشعراء الجاهليين دراسة تطبيقية ، وبدأ بشعراء الين وربيعة وشك في حقيقة امرئ القيس ، وانتهى الى رفض شعره وأشعار الينيين ورفض - أو كاد يرفض - أشعار شعراء ربيعة ، اذ جمهورها - في رأيه منتحل مصنوع ، وذهب إلى أنه لم يسلم من أشعار مضر من الانتحال الا القليل ، ومن هذا القليل مدرسة زهير وعنى بدراسة شعرها وخصائصه ، وأنكر النثر الجاهلي جملة ، وقال اننا لا نستطيع أن نخلص الأمثال الجاهلية من الأمثال الاسلامية ، فقد اختلط النوعان من الأمثال اختلاطاً واسعاً . وكتبت عشرات المقالات في الصحف وألفت طائفة من الكتب تعارض نظرية الكتاب في أن الكثرة من الشعر الجاهلي منحولة موضوعية ، غير أن النظرية أدت دوراً مهماً في دراسة هذا الشعر اذ أصبح شعراؤه لا يدرسون الا بعد مراجعة دقيقة لروايات أشعارهم ونفي الزائف منها والاعتماد على الوثيق منها الذي لاتداخله الشبهة والارتباب .

ونضى مع طه حسين الى سنة ١٩٣٣ وفيها ينشر كتاباً عن حافظ وشوقي وهو في مجموعه نقد للشاعرين الكبيرين . وينشر طائفة من المقالات في بعض الصحف اليومية عن شعراء جاهليين ومخضرمين ، اختار فيها لكل منهم قصيدة مصوراً فيها انطباعات له بديعة ممتعة ، وجمعها في الجزء الثاني من حديث الاربعاء . وألقى مجموعة من المحاضرات تحدث فيها عن منزلة الأدب العربي بين الآداب القديمة الكبرى : اليونانية واللاتينية والفارسية ، ورأى أنه يتقدم الاديين اللاتيني والفارسي ، وأخذ في عرض النثر أثناء القرنين الثاني والثالث للهجرة وأعلامه الناهين : سالم مولى هشام بن عبد الملك كاتب الانشاء في دواوينه وخليفته في الدواوين الاموية : عبد الحميد الكاتب وذهب إلى أنه كان يتأثر في صياغة كتابته باليونانية لكثرة استخدامه للحال ، وهي لازمة تلاحظ عند أستاذه سالم من قبله وتحدث عن ابن المقفع وشبهه بالمستشرقين الذين يحسنون العربية ويعيهم أحياناً الأداء السديد غير آبه بثناء القدماء عليه وعدمه له أحد الأدباء الافذاذ الذين يتقدمون أدباء العصر العباسي وكتابه ، ونوه بالجاحظ وبرسالته البديعة : « الترييح والتدوير » . وأضاف الى هذه المحاضرات محاضرات عن كبار الشعراء في القرن الثالث الهجري : أبي تمام والبحتري وابن الرومي وابن المعتز . ونشر هذه المحاضرات جميعاً في كتابه : « من حديث الشعر والنثر » وهو يجلو جوانب من الأدب العربي نثراً وشعراً في القرنين الثاني والثالث للهجرة وفي سنة ١٩٣٧ أصدر كتابه مع المتنبي وهو فيه يدرسه دراسة نفسية تاريخية فنية ، تتبعه فيها منذ مولده ومنبته في أسرة متواضعة ، ورأى أن شعوره بهذا الضعف من ناحية أسرته وأهله الأذنين كان العنصر الأول المؤثر في شخصيته وبفضه للناس وماأخذ حياته من الشذوذ ويرافقه في تعلمه وارتحاله الى البادية

وبدء نظمه للشعر وتعرفه على مبادئ القرامطة ومفارقته للكوفة في السابعة عشرة من عمره والمأمه ببغداد لمدة قصيرة وتحوله الى الشام وثورته فيها وسجنه ومدحجه للامراء هناك واقامته فترة في بلاط سيف الدولة ، وتحوله الى كافر بمصر وفراره منها الى العراق وارتحاله الى ايران لمديح ابن العميد وعضد الدولة ، ويعود من لدنها ويفتك به القرامطة في طريقه الى بغداد . ويدرس طه حسين المتنبي في كل ذلك محلاً نفسيته وشخصيته وشعره ويحمل عليه مرارا ويقول إنه كان متهاكاً على المنافع العاجلة وطلب المال من ممدوحيه الكثيرين ، وصب عنايته في الكتاب على شخصية المتنبي لا على شعره ، وعلى جوانبه التاريخية لا على جوانب فنه .

وينشر الجزء الثالث من حديث الاربعاء ، وهو يضم مقالات متنوعة بعضها نشره في صحف يومية منذ سنة ١٩٢٣ وبعضه نشره بها في السنوات الاخيرة ، ويدخل في القسم الأول ما كتبه من مقالات عن القديم والجديد والرافعي وعن أعمال بعض المفكرين والباحثين والأدباء ويدخل في القسم الثاني ما كتبه من مقالات نقد فيها الابداع الشعري عند علي محمود طه وإبراهيم ناجي ومحمود أبي الوفا وإيليا أبي ماضي وفوزي المعلوف . ويعود الى أبي العلاء ، فيعرض طائفة من شعره وفكره وفلسفته في كتابه : « مع أبي العلاء في سجنه » ثم يعود اليه ثانية في كتابه « صوت أبي العلاء » ناثراً طرائف من شعره . وطه حسين - بكل ما قدمت - يعد الرائد الموجه الفذ لدراسات الأدب العربي وتاريخه ودراسات شعرائه المبدعين في القديم والحديث .